حين يأتي الاعتراف بعد فوات الأوان (دلوك يا أم رحيم): عن العناد الإنساني وكلفة أن تكون على صواب

(1)

يصل «رحيم المنشاوي» برفقة «حسنات» إلى بيت العائلة الكبير بعد رحلة قطار طويلة، مُثقلين بمرور السنوات وبما آلت إليه الأقدار. في تلك اللحظة، وتحديداً في مواجهتها الأولى مع حسنات، تُبدي الأم ترحيباً دافئاً لم يكن متوقعاً، وتعلن بصوتٍ حاسم أنها لن تسمح بأن يمر الليل دون أن تُزوجَهما. ينظر إليها رحيم بروحٍ أنهكها الصبر، ويقول نبرةٍ تجتمع فيها خيبة العمر بمرارة الانتصارات الميتة: *«الآن يا أم رحيم؟ أخيراً فهمتِ واقتنعتِ؟»*. لكن القدر، الذي امتهن السخرية من أحلام الإنسان، لم يمهلهم جميعاً لاتمام هذا الأمر؛ فقبل أن تُطبخ وجبة العشاء، تُسلم روح رحيم لبارئها.

لقد أمضى رحيم سنواتٍ طوالاً يخبرهم جميعاً بصدقٍ أن حسنات إنسانة طيبة وأصيلة، وأنها تستحق أن تصبح زوجته. حارب في وجه نظرتهم القصيرة، واحتمل التهميش والقطيعة، وظلت هي محافظةً على عهدها، ترتدي خاتمه البسيط طوال تلك العقود كشاهدٍ صامت على وفاءٍ لم يرَه أحد. إلا أن اعتراف الأم المتأخر لم يشفِ صدر رحيم، ولم يُعد له عقداً من العمر أُهدر في الصراع والدفاع عن بداهةٍ لم يُرد أحدٌ رؤيتها.

(2)

هذه الدراما ليست مجرد حكاية متخيلة على شاشة التلفزيون، بل هي التجسيد الأكثر تكثيفاً لمأساةٍ إنسانية يخوضها الكثيرون منا في حياتهم اليومية. كم من الوقت والجهد نُنفد ونحن نحاول تنبيه من نكترث لأمرهم؟ كم من التحذيرات الصادقة نقدمها على طبقٍ من الحرص والمحبة لأشخاصٍ يهمنا أمرهم، لنكتشف أننا نتحدث أمام جدارٍ من الصمم الاختياري والعناد؟

إن النظرة القصيرة والقاصرة للأمور غالباً ما تُحول النصح إلى ساحة معركة؛ فالشخص المعاند لا يقرأ تحذيرك له على أنه حرص، بل يتلقاه كنوعٍ من فرض السيطرة أو التقليل من شأنه. ومن هنا، يغدو الاستمرار في الخطأ بالنسبة له معركة لإثبات الذات، حتى وإن كان هذا الإثبات سيهدم البيوت فوق رؤوس قاطنيها. يرى أن التراجع عن موقفه أو الاستماع لصوت العقل انكسار، فيتمادى في اتخاذ القرارات الخاطئة، زادُه في ذلك نظرة قاصرة لا ترى سوى لحظتها الحاضرة.

(3)

لكن الجانب الأكثر قسوة في هذه المعادلة يكمن في ذلك "الاعتراف المتأخر". عندما يستوعب المعاند خطأه أخيراً بعد سنوات من الضياع، فإن تحوله غالباً ما يأتي محفوفاً بأنانيةٍ خفية. هو لا يعترف ليكرمك أو لينصفك، بل يعترف ليُريح ضميره من ثقل العقدة؛ ليتخلص من الشعور بالذنب، ليقول لنفسه إنه صوّب الأمر قبل النهاية.

لكن ما قيمة الاعتراف إذا جاء بعد أن استُنزف العمر ودُفع الثمن كاملاً؟ الاعتراف الذي يأتي بعد فوات الأوان لا يعيد السنوات السليبة، ولا يجبر الخاطر المكسور، ولا يمحو مرارة المرور عبر الشوك. إنه يشبه تماماً ضِماضاً طُبّق على جرحٍ تعفّن ومات

صاحبه. إن قول الأم لرحيم: «لن يمر الليل حتى أزوجكما» لم يُصلح ما أفسده الليل الطويل الذي عاشه رحيم وحيداً في ظلام الشك والرفض.

(4)

أمام هذه الحالة الإنسانية المعقدة، يُطرح السؤال الخالد: كيف يتصرف المرء حين يجد نفسه في موقع رحيم؟ حين يحمل وعياً ورؤية صائبة، بينما يصر من حوله على قيادة المركب نحو الغرق؟

الحقيقة التي يجب أن ندركها، ولو بعد حين، هي أن طاقتنا النفسية والصحية ليست بئراً بلا قاع؛ إنها موارد محدودة جداً. من الطبيعي ومن شيم الوفاء والمحبة أن نستمر معهم لفترة، أن نحذر، أن ننبه، وأن نبذل كل جهد ممكن لنصنع فارقاً. هذا واجُب المحبة والمسؤولية الإخلاقية. ولكن، حين نصل إلى اللحظة التي نتيقن فيها أن الصوت يرتم برأسٍ لا يريد أن يسمع، فإن العقل والحكمة يتطلبان منا خطوةً جادة: **أن نرفع أيدينا**.

رفْعُ اليد هنا ليس تخلياً، ولا هو قسوة أو جفاء. إنه اعترافٌ شجاع بأن لدينا نحن أيضاً أعباءنا، وهمومنا، ومشاكلنا الخاصة التي تحتاج إلى كل ما نملك من طاقة لنستمر في مواجهتها. إن احتراقك بجانب شخصٍ يصر على إشعال النار في بيته لن ينقذ البيت، بل سيجعلكما ضحيتين للحريق نفسه.

(5)

لقد علمتنا رحلة رحيم المنشاوي أن أشد أشكال الخسارة ليست أن تكون على خطأ، بل أن تكون على صواب في وسطِ من يصرون على عدم رؤية الحقيقة إلا حين تصبح أطلالاً.

إن الاعتراف الذي لا يأتِ في وقته المناسب ليُبنى عليه حاضر ومستقبل، هو اعترافٌ أبتُر، لا يُريح سوى صاحبه. ولعل أحكم ما نفعله في هذه الحياة هو أن نعرف متى نحاول بحب، ومتى ننسحب بسلام، مفسحين المجال للأقدار كي تُعلّم من لم يستجب للكلمة، ومحتفظين بما تبقى من أرواحنا لمواجهة معاركنا الحقيقية.

رابط الحلقة الأخيرة والمشهد يبدأ من الدقية 31

https://www.youtube.com/watch?v=h2Lboh0U0tQ

******

كتبت هذه المقالة مع جوجل جيمني (خدمة الذكاء الاصطناعي من جوجل) بعد حواري ومناقشتي للفكرة معه 😊 😊